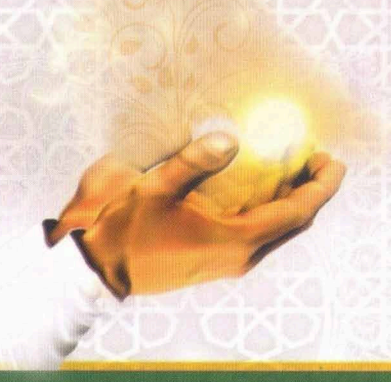


عِبادة الشكر

حقيقتها ووجوبها وفضلها وأسبابها ولوازمها



تأليف الدكتور

محمد حاج عيسى

أستاذ محاضر جامعة تلمسان

دار الإمام مالك

البليدة - الجزائر

عِبَادَةُ الشُّكْرِ

حقيقتها ووجوبها وفضلها وأسبابها ولوازمها

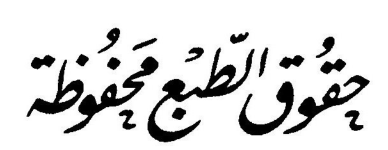
تأليف الدكتور

مُحَمَّد حَاج عِيسَى

أُسْتَاذ مُحَاضِر جَامِعَة تِلِمْسَان



البليدة . الجزائر



الطبعة الأولى

1441هـ - 2020م

جانفي 2020م

ISBN:978-9931-769-21-7

يطلب الكتاب من

قسم التوزيع بدار الإمام مالك

هاتف: 0664.59.59.53

darelimam_malek@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين، أمّا بعد فإنّ الشكر عبادةٌ من العبادات الواجبة على كل مسلم، وأصلٌ من أصول الإيمان الصحيح، عبادةٌ تحقيقها على وجه الكمال ثمرةُ اجتماع العلم بمعاني الربوبية والعمل بخصال العبودية، إذْ كلّ مَن عرف الله تعالى بكمال صفاته وجميل أفعاله وعاين عموم نِعمه سبحانه؛ أيْقن استحقاقه سبحانه للشكر كلّه؛ وأوّل مراتب هذا الشكر توحيده بالمحبة والرجاء والحمد والثناء والطاعة والانقياد، فالشكر معرفة واذعان وإيمان، وضده جهل وجحود وكفران؛ وقد قال تعالى . (وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة:) وقوله: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم:7)، والشكر بمعناه التام الكامل هو التوحيد الذي لأجله خُلق الجن والإنس، وكما كان الشكر غاية ومقصدا لله تعالى في خلقه؛ فإنّ صرف الناس عنه هو غاية غايات الشيطان من إغوائه ووساوسه، وقد صرّح به كما في محكم التنزيل: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ

شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: 16- 17) أي أكثرهم جاحدين كافرين.

والناس في عصرنا غافلون عن هذا الواجب، والأصل العظيم من أصول الإيمان، وأحسنهم حالا من يحسبه من مَحاسن الخلال ومُستحبات الخصال، فقلَّ في البشر الشاكرون وقلَّ في المسلمين من يُحقّق معنى الشكر، وصدق رب العزة سبحانه إذ قال: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(سبأ: 13)، ولقلّة الشاكرين وعزّتهم أثنى الله تعالى على الصالحين من صفوة عباده والمختارين من أنبيائه بأنهم كانوا من الشاكرين، فقال عن نوح عليه السلام: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) (الإسراء:3) وقال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (النحل:120-121).

فالشكر عبادة لله تعالى مهمة جدا لأنه معرفةٌ وتوحيدٌ، ولأنه من خصال الصالحين والأنبياء والمرسلين، ولأن ضده هو الكفر والجحود، ومما يُجلّي أهميته أنّ الشيطان جعل من غاياته أو منتهى غاياته صرف الناس عنه، فقال كما في التنزيل (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف: 17).

وفي هذا البحث محاولة جمع ما ارتبط بهذه العبادة بيانا لحقيقتها ووجوبها وأسباب تحصيلها ثم لوازمها الظاهرة والباطنة؛ كما دلت عليه نصوص القرآن والسنة وشرحه العلماء الأعلام، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

المطلب الأول : حقيقة الشكر والفرق بينه وبين الحمد

الفرع الأول: حقيقة الشكر

أصل الشكر في اللغة الثَّنَاءُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَعْرُوفٍ يُولِيكَهُ[1].
وقيل هو عِرْفانُ الإحسان ونَشْرُه[2]، والقولان متلازمان فالعرفان موجبٌ للثناء، والثناء مظهرٌ من مظاهر نشرِ ذلك الإحسان, ومنه فشكر الإنسان الاعتراف بإحسانه وفضله، وإظهار تلك المحاسن والفضائل بذكرها وبالثناء على صاحبها.

وشكر الله تعالى قريب من هذه المعاني، وقد ذكر له العلماء أركانا لا يتم إلا بها واختلفوا في تِعدادها وترتيبها، وأجمعها قول ابن القيم :« والشكر مبنيٌّ على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور، وحبّه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عَدم منها واحدة، اختل من قواعد الشكر قاعدة »[3]. وأوّل هذه الأركان الخضوع الذي يستلزم تسليم الأمور لله تعالى والاعتراف بالحاجة إليه والافتقار إلى

1/ مقاييس اللغة لابن فارس (3/ 207).

2/ لسان العرب لابن منظور (4/ 423).

3/ مدارج السالكين لابن القيم (2/ 234).

فضله ونعمه، وثانيها حبّه سبحانه؛ وذلك لازم قلبي لمعرفة النّعم ومسديها والإحسانِ ومصدره.

وهذان المعنيان قلبيان باطنان، وهما ناتجان عن علم القلب بالنعمة والمنعم، والقلوب جُبلت على الميل إلى المنعم المحسن وحبّه والخضوع له، وقد جاء في دعاء سيد الاستغفار: "أَبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ"[1]، والبوْء هو الرجوع إلى الله تعالى رجوعَ المعترف المقبلِ عليه، المطمئنّ المنيب إليه الراضي الخاضع له[2].

وثالث الأركان الاعتراف وهو الاقرار باللسان أمام الخلق بفضل الله تعالى والتقلّبِ في نعمه التي لا تُعدُّ ولا تحصى، ورابعها الثناءُ بها عليه؛ بمعنى مقابلة الإنعام والإحسان بالثناء الحسن، والوصفِ بجميل الصفات والأفعال الموجبة لتلك النّعم، وهذان المعنيان لسانيان ظاهران؛ وإن كانا متوقفين على المعاني القلبية، إذ الخضوع دافع للاعتراف، والحبّ محرّك الثناء.

وضدّ الاعتراف الجحود والانكار بنسبة النعمة إلى غير الله تعالى، كمن ينسب الغيث لفعل الكواكب، وقد جاء في حديث ابن عباس

1/ رواه البخاري (رقم: 6306).

2/ طريق الهجرتين لابن القيم (168-169).

رضي الله عنهما أنّ الناس مطروا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَـافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَـوْءُ كَـذَا وَكَـذَا »[1].

وهذا الاعتراف اللساني مقترن بالثناء على الله تعالى وحمده كما نـقرأ في فاتـحة الكتـاب (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[الفاتحة: 2] وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَـا أَوْ يَشْـرَبَ الشَّـرْبَةَ فَيَحْمَـدَهُ عَلَيْهَـا»[2]، ومن لوازم هذا الثناء كما سبق في المعنـى اللغـوي نشـر هـذا الاحسـان وذلك بالتحدث به وإظهاره وكل ذلـك يشـمله قـول ربنـا عـز وجـل : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى:11)

وخامسُ الأركان عدمُ استعمال النعم فيما يكره ربنا المـنعم سـبحانه، وذلك أنّ محبّة القلب وخضوعَه يدعوان إلى طاعـة الجـوارح وانقيادهـا، ولا يُتصوّر شاكرا للنعمة من بارَزَ المنعم بنعمه أو أغضـبه باسـتعمالها في مخالفة أمره.

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 73).

[2]/ رواه مسلم (رقم: 2734).

ويدلّ على أنّ الشّكر عملٌ وطاعةٌ قوله تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) (سبأ: 13) أي اعْمَلُوا شُكْرًا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدين والدنيا[1]، وقال الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ، قَالُوا: قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[2].

ومنه فإنّ حقيقة شكر الإله اجتمع فيها بَعد العلم بالنّعمة عملُ القلب واللسان والجوارح، فجمع خصال الإيمان الكامل والعبودية التّامة، قال ابن القيم رحمه الله :«كذلكَ حقيقتُهُ في العُبودِيَّةِ. وهو ظهورُ أثرِ نعْمَةِ اللَّهِ على لسَانِ عبْدِهِ: ثناءً واعتِرَافًا، وعلى قلبِهِ: شهودًا ومحَبَّةً، وعلى جوَارحِهِ انقيَادًا وطاعَةً»[3].

الفرع الثاني : الفرق بين الشكر والحمد

مما ينبغي تجليتُه بعد شرح معنى الشكر في اللغة والشرع؛ معنى الحمد والعَلاقة بينه وبين الشّكر لما بينهما من التقارب والتداخل في المعاني، فأمّا الحمدُ في اللغة فهو الثناءُ على الرّجل بما فيه من صفات أو نظير

---

[1]/ تفسير ابن كثير (6/ 500).

[2]/ رواه البخاري (رقم: 1130) ومسلم (رقم: 2819) واللفظ له.

[3]/ مدارج السالكين لابن القيم (2/ 234).

إحسان أولاكه، ومنه فإنّ الحمدَ أعمُّ من الشكر[1]، لأنَّ الشّكر في اللغة لا يكون إلا مقابل الإحسان، ومِمَّا يُبيِّن الفرق أيضا أنّ الإنسان يجوز أن يَحمد نفسه بجميل صفاته وأفعاله ولا يصح أن يشكرها لِأَن الشُّكْر يجْرِي مجْرى قضَاء الدّين ولا يجوز أَن يكون للإِنْسَان على نَفسه دين[2].

وقد أطلق بعضُ أهل العلم القولَ بالتسوية بينهما، ومنهم الطبري رحمه الله تعالى[3]، إذْ فسّرهما بالثناء على الله تعالى بصفاته ومقابل إنعامه على حدّ سواء، وقد ردَّ عليه قولَه وحجتَه ابنُ العربي وابنُ عطية والقرطبيُّ وغيرهم[4].

وأما من جهة اطلاقات الشّرع فقد ذكر ابن العربي أنّ الحمدَ يُستعمل كثيرا في الثناء بالقول، وأنّ الشكرَ يستعملُ في الجزاء بالفعل[5]، وأورد قوله تعالى : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

1/ اشتقاق أسماء الله للزجاجي (89-90).

2/ الفروق لأبي هلال العسكري (48-49).

3/ تفسير الطبري (1/ 137.

4/ الأمد الأقصى لابن العربي (2/ 207-208) تفسير ابن عطية (1/ 66) الأسنى في شرح الأسماء الحسنى للقرطبي (1/ 322-323).

5/ الأمد الأقصى لابن العربي (2/ 209).

(فاطر: 34) وقوله: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ) (الزمر: 74) وقولَه سبحانه : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) (سبأ: 13) وقولـه : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) [النمل: 19].

لأجل هذا ذهبَ بعض العلماء إلى أنَّ الشُّكْرَ أَعَمُّ مِن الحمد، لأنّه باللسان وبالجوارح وَالْقَلْبِ، وَالْحَمْدُ إِنَّمَا يَكُونُ بِاللّسَانِ خَاصَّةً، بينما قال آخرون إنّ الْحَمْد أَعَمّ، لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الشُّكْرِ وَمَعْنَى الْمَدْحِ، ولكنْ هذا من جهة اللغة لا الاستعمال[1].

وقد جمع بين الرأيين ابن القيم وابن كثير بأن الحمدَ أعمُّ من جهة متعلقاته في اللغة؛ لأنه يشمل الثناء مقابل الإحسان والإنعام والثناء على الله بجميل الصفات ومحاسن الأفعال، بينما يختصُّ الشكر بالثناء على الإحسان والنعمة. فيصحُّ أن نحمد الله على حكمته وقدرته وسمعه وبصره، ولا يصح أن نشكره على ذلك، ويصحُّ أنْ نحمده وأن نشكره على نعمة الصّحة والولد والطّعام.

والشّكر أعمُّ من جهة أسبابه وطرق حصوله (في الاستعمال) لأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، وبينما الحمد لا يكون إلا بالقلب

[1]/ انظر: تفسير القرطبي (1/ 133-134)..

واللسان، فزاد الشكر على الحمد بعمل الجوارح، وقد سبق أنّ الشكر لا يتم إلا بالعمل والطاعة واستعمالِ النعمةِ فيما يُرضي الله تعالى [1].

---

[1]/ انظر: مدارج السالكين لابن القيم (2/ 246) تفسير ابن كثير (1/ 128).

المطلب الثاني : حقيقة النعمة وهل هي جزاء أم ابتلاء؟

الفرع الأول : حقيقة النعمة وأنواعها

لما تبيَّن في المطلب السابق أنّ الحمدَ والشكرَ من حيث الاستعمال كلاهما يتعلَّق بالنّعم وينفرد الحمدُ بالثناء على الله تعالى بجميل صفاته؛ فإنّه من المناسب الحديث عن نعم الله تعالى الموجبة لحمده وشكره وبيان أنواعها.

فنقول إنّ الجذر "نعم" في أصل اللغة يدل كما قال ابن فارس "عَلَى تَرَفُّهٍ وَطِيبِ عَيْشٍ وَصَلَاحٍ". قال :"مِنْهُ النِّعْمَةُ: مَا يُنْعِمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ بِهِ مِنْ مَالٍ وَعَيْشٍ. يُقَالُ: لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ. وَالنِّعْمَةُ: الْمِنَّةُ، وَكَذَا النَّعْمَاءُ. وَالنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وَطِيبُ الْعَيْشِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ) (الدخان: 27)"[1].

ومَنُّ الله تعالى ومظاهر إنعامه على العباد لا تُعدُّ ولا تُحصى، كما قال سبحانه: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم:34)، وقال : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان: 20)

---

[1]/ مقاييس اللغة لابن فارس (5/ 446).

وهذه النعم يمكن تقسيمها باعتبارات ثلاثة:

1-فتُقسّم النّعم باعتبار عمومها للناس إلى النّعم العامة لكل الناس المشتركة بينهم، والنّعم الخاصة ببعضهم، فمن النّعم العامة نعمة الحياة وما تعلق بها من أسباب من تهيئة هذه الدنيا بأرضها وهوائها ومائها وحيواناتها وجعلها مُسخّرة للإنسان، قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة: 29) ومن النّعم الخاصة ببعض الناس نِعمُ المال والجاه والعلم والصّحة، والنّاس متفاوتون في نيل هذه النعم بحسب مشيئة الله تعالى واستحقاق العبد لها. قال الله عز وجلّ : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) (الزخرف: 32)

2-وتقسّم النّعم باعتبار دوامها إلى النعم الدّائمة والنّعم المتجدّدة، فمن النّعم ما هو دائم مصاحب للإنسان كالنّعم التي هي سبب استمرار الحياة ونعمة الحواس وسلامتها، ومنها ما هو متجدّد مرّة بعد مرّة أو بعد حلول ضدها؛ كنعمة الولد والرّزق بعد الحاجة والنّصر بعد الهزيمة، والشفاء بعد المرض والنّجاح بعد الفشل.

3-وتقسم النّعم باعتبار بقائها وفنائها إلى النّعم المطلقة الباقية والنّعم المقيدة الفانية، فمنَ النّعم الباقية الإيمان والهداية والتوفيق للعمل

الصالح واتباع السّنة والثبات على الصراط المستقيم ، وهي باقية لاستمرار أثرها إلى ما بعد الموت، وهي النعم المطلقة والحقيقية لاتصالها بالسعادة الأبدية، قال تعالى: (مَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (النساء:69) ولما كانت الجنّة هي النّعيم المقيم كانت هي النعمة الحقيقة وكلّ ما أوصل إليها من نِعم الدنيا كان له حكمها، قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) (يونس: 9) وقال سبحانه : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الأعراف: 43]

ومن النّعم الفانية المقيّدة سائر نِعمِ الدنيا التي تنقطع بنهايتها؛ سواء ما كان مشتركا أو خاصا وما كان دائما أو مُتجدّدا، كنعمة الحياة ونعمة الصّحة ونعمة الولد ونعمة الأمن، قال ربنا سبحانه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) (الإسراء:18-21).

وكلّ هذه النّعم موجبٌ لشكر الله تعالى وتوحيده وعبادته؛ فما كان منها عاما ودائما فهو من دلائل عنايته بخلقه وقيوميته ورحمته سبحانه؛ وذلك يدعو إلى دوام حمده وإلى الإيمان به، وما كان منها خاصا ومتجدّدا فهو داع لتجدّد شكره وزيادة الإيمان به.

الفرع الثاني: النعمة بين الجزاء والابتلاء

بعد أن بينّا أنواع النّعم وقسّمناها باعتبارات ظاهرة؛ نرجع لتقسيمها بتقسيم باطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو أنّ النعمة قد تكون من الجزاء، وقد تكون من البلاء، وقد يجتمع فيها الأمران، وهذا في مقاصد الإله سبحانه وحكمه في أفعاله وتدبير شؤون خلقه، فالله تعالى قد يبتلى العباد بالشرّ والنقمة ليتميز الصابر من الساخط، والمؤمنُ الحسن الظن بربه مِن السيّء الظن بربه، وهو سبحانه أيضا يبتلي العباد بالخير والنّعمة ليتميّز الشّاكر من الكافر الجاحد، وفي هذا يقول رب العزة: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء:35) فجعل كلاً من الخير والشر فتنةً بمعنى ابتلاءً واختبارًا، وكوْن النّعمة محلّ امتحان للعبد أمرٌ ظاهر؛ إذا ما تأمّلنا أركان الشكر السابقة والتي منها الاعتراف بها واستعمالها فيما يرضي الله تعالى وعدم استعمالها فيما يُغضبه، وقد

قال سليمان عليه السلام كما في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) (النمل: 40) ومع كون النعمة محل امتحان أمرا ظاهرا؛ فإنّ غالب الناس يذهل عنه ويعتبر كلّ نعمة جزاءً من الله تعالى؛ ويخالها مستحقّة بعمل سابق ولا موجبةً لشكر لاحق، كما أنّ بعض من حُرم نعمةً من النعم قد يَعدُّ ذلك عقابا وإهانة، وهذا ما بيَّن المولى عز وجل خطأه في قوله سبحانه: (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) (الفجر:15-17) حيث قسّم الابتلاء في ضمن ذلك إلى نوعين: أحدهما بسط النعم، والثاني التضييق فيها.

نعم قد تكون النعمة في الدنيا جزاء للعبد على صبره وشكره وطاعته، وربنا تعالى شكور يجازي العبد المؤمن، ويعجّل له بعض ما يستحقه في الدنيا؛ تثبيتا له ونُصره له كما في قوله تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) (النحل:30) وقوله: (وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) (النحل:41)، لكن ينبغي للعبد ألاّ يغتر بعمله وألاّ يُحسن الظن بنفسه فيتّكل، بل عليه أن يرى النعمة ابتلاء حتى وإن كانت في حقيقتها جزاءً،

كما يجب عليه إذا حلّ به البلاء أنْ يراجع نفسه ويتّهمها، ولا يجوز له أن يزعم أن ما أصابه هو بلاء لرفع الدرجات، وإنْ رغب فعلا في الأجر ورفع الدرجات فعليه بالصّبر والرضا والاحتساب.

الخلاصة أنّ النعمة ابتلاء لابد أنْ يتبعها الشكر، وقد تكون –في علم الله تعالى– جزاء معجلا للعبد قبل الجزاء الكامل الأبدي الذي يكون يوم القيامة، ولابد أنْ يتبعها الشكر. وهذا لا يخص المؤمن، فالكافر أيضا يجزى في الدنيا على عمله الصالح –رغم كفره– ولكن لا جزاء له في الآخرة لأن عمله كله حابط، وفي هذا يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»، وفي رواية : «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنْ الدُّنْيَا وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ»[1].

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 2808).

المطلب الثالث : أدلة وجوب الشكر

إنّ عبادة الشكر واجبة قطعا بدِلالة الكتاب والسنة والإجماع والفطرة، ومنْ تأمّل معناها وأركانها لم يشكّ في ذلك أدنى شكّ، ونظرا لكثرة الدلائل نحاول تنظيمها على النحو الآتي:

أولا: إنّ الشّكر واجب بدلالة الفطرة السّوية وشهادة العقول السليمة، فكما أنّ النفوس مجبولة على محبّة من أحسن إليها هي مجبولة على شكره [1]، وقد أكثر الله تعالى من المنِّ بنعمه على عباده في كتابه، تنبيها للعقول على وجوب شُكرها، لأنّ ذكر النعمة يستلزم شكرها [2].

ومنه فإنّ أوّل ما يدلّنا على وجوب الشّكر في كتاب الله تعالى: آيات تِعداد النعم والأمر بذكرها.

ثانيا: مما يدلُّنا على وجوب الشكر: تأمُّلُ حكم الأركان الخمس التي بني عليها، 1-فمحبة الإله سبحانه لا شك في وجوبها لأنها لبُّ العبادة.

2-والخضوع لله لا ريب في وجوب إذ هو حقيقةُ الإسلام.

3-والاعتراف بالنعمة وإضافتها إلى الله تعالى لا مرية في وجوبه، إذ ضده هو الجحود والكفر، وقد قال الله تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا

---

[1] / الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم (2/ 495).

[2] / انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (2/ 545) و(2/ 556).

مِنْ بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) (فصلت:50). ومعنى (هذا لي) أي من عندي" كما قال ابن عباس.

4- وأمّا وجوب الثّناء على المنعم سبحانه فيكفي للدلالة عليه قوله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى:11) فهذا أمر بالتحديث بها ذكرا وإفشاء وتِعدادا وكلُّ ذلك شكرٌ.

5-وأمّا ركن استعمالها فيما يُرضي الله تعالى وعدم مبارزته بها؛ فهو واجب لوجوب العمل ودخوله في مسمى الإيمان، وفقْد هذا الرُّكن علامة فُقدان الأركان الأربعة أو بعضها إذ هي أصوله الموجبة له، وهو الثمرة الناتجة عنها.

ثالثا: من أصرح أدلّة الوجوب الأدلة الآمرة بالشكر، فقد ورد الأمر به في آيات كثيرة أمرا مطلقا كما في قوله تعالى: (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ) (الزمر: 66)، أو أمرا تصبحه دلالة حالية تؤكد الوجوب وترفعه إلى أرفع المقامات وتقرنه بأوجب الواجبات، ومن ذلك جعله شرطا في تحقق العبودية الكاملة كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة:

172)، ومن ذلك قرنه بتوحيد الدعاء والعبادة كما في قوله: (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (العنكبوت:17)، ومن ذلك مقابلة الشكر بالكفر كما في قوله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة: 152).

رابعا : ومن الأدلة على وجوب الشّكر إطلاقه بمعنى التوحيد أو الإيمان، فقد سُمِّيَ التوحيد شكرا وجُعل غايةَ الخلْق في قوله تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: 78)، وجُعل الشّكرُ غايةَ الأمر وإرسال الرسول[1] كما في قوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة: 151، 152)، وأيضا سمي الإيمان شكرا، كما في قوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان :3)، والمقابلة بين الكفر والشّكر كثيرة في القرآن[2] نحو قوله سبحانه: (لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم :7) وقوله:

---

[1]/ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: 119).

[2]/ انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: 117).

(وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان : 12).

خامسا : ونختم الدّلائل المنتخبَة على وجوب الشّكر، بقوله تعالى : (ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر: 8) فهذا وعيد منَ الله تعالى للعباد بأنّه سائلهم عن النِّعم عمَّا عملوا فيها، وحقيقة ذلك السُّؤال عن شكرها، كما قال غير واحد من أهل العلم[1].

---

[1]/ انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (2/ 555) والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (30/ 425).

المطلب الرابع : فضائل الشكر

للشّكر فضائل كثيرة، وللشاكر جزاء عظيم عند الله تعالى، منه ما يحصل في الدنيا ومنه ما يحصل في الآخرة، وهذا شأن كلّ العبادات الظاهرة والباطنة التي أوجب علينا ربّنا عز وجل، فإنّ الله تعالى إنّما أوجبها علينا وهو غني عنّا وعنها، وإنما يرجع أثرها وثمرتها للعباد كما قال تعالى :(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ) (الروم: 44) وقد قال سبحانه في الحديث القدسي :"يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا" ثم عقب ذلك بقوله :"يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"[1]، ومن ذلك عبادة الشّكر فالله سبحانه لا يزيده شكرُنا ولا يُنقصه جحدنا ونكراننا، وقد قال تعالى: (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) (لقمان: 12)، وفيما يأتي تِعداد لفضائل الشكر، وما يجنيه العبد من فوائد وثمار وما يكسبه من آثار.

---

[1] / رواه مسلم (رقم : 2577).

الفرع الأول: منزلة الشاكرين وصفاتهم

أولا: الشكر من صفات أصفياء الله تعالى وأنبيائه

إنّ صفة الشّكر من أبرز صفات أنبياء الله وعباده الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته؛ ولم يمتدح منهم بهذه الصفة في كتابه إلا اثنان هما من أولى العزم قدوة الناس والأنبياء، إبراهيم ونوح عليهما السلام، فقال عن نوح عليه السلام: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) (الإسراء: 3). وقال عن إبراهيم عليه السلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (النحل: 120-121) فالمتّصف بالشّكر متشبّه بالصفوة من خلق الله تعالى وعباده. ونبيُّنا صلى الله عليه وسلّم المأمور بالاقتداء بالأنبياء السابقين؛ والذي كان خلقه القرآن هو سيِّد الشّاكرين أجمعين، فقد كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان يصومُ النهار ويواصل، وكان يقوم من الليل حتى تفطّرت قدماه، فلمَّا قيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر, قال صلى الله عليه وسلم :"أفلا أكون عبدا شكورا"[1].

---

[1]/ رواه البخاري (رقم: 4836) ومسلم (رقم: 2819).

ثانيا : العبد الشاكر من الأقلّين

وما خصّ الله تعالى وصف الأنبياء بهذه الصفة؛ إلا لعزّة المتّصف بها على وجه الكمال اعترافا بالنعمة وقياما بالخدمة[1]، فممّا يبيّن فضل هذه العبادة قلّة أهلها الذين هم خواص الله تعالى والصفوة منْ خلقه والذين يرضى عنهم، وقد قال تعالى: (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ:13) وقال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ) (غافر:61) وجل جلاله: (وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (المؤمنون: 78).

ثالثا : الشكر من سمات أولي الألباب المنتفعين بآيات الله

فقد أخبر الله تعالى في محكم التنزيل أنّ المنتفعين بآياته الكونية وبراهين وحدانيته وقدرته وحكمته هم أهل الصّبر والشّكر، وذلك أنّ الشّكر دليل على كمال العقل وسلامته وصفائه[2]، فقال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آَيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (لقمان:31) وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى

---

[1]/ انظر: فتح الباري لابن حجر (3/ 15).

[2]/ انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (9/ 54) ومدراج السالكين (2/ 154).

بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (إبراهيم:5)

رابعا: الشكر نصف الإيمان

قد جعل النّبي صلى الله عليه وسلم الشّكر من صفة المؤمن الحقّ، فقال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1]. وربما كان في هذا الحديث دلالة على أنّ الشّكر يمثّل نصف الإيمان ما دام المؤمن متقلّبا بيْن السّراء والضّراء، وقد صحّ عن عامر الشعبي أنّه قال: "الشُّكْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ، وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ"[2]، وقال ابن القيم:« منزلة الشّكر من أعلى المنازل, وهي فوق منزلة الرضا وزيادة, فالرّضا مندرج في الشّكر, إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان ..., فالإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر»[3].

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 2999).

[2]/ شعب الإيمان للبيهقي (6/ 258) الشكر لابن أبي الدنيا (رقم 58).

[3]/ مدارج السالكين لابن القيم (2/ 232).

الفرع الثاني : الشكر وآثاره الدنيوية

أولا : الشكر سبب للعطاء والهداية والتوفيق

إنّ الله تعالى قد فرَّق بين عباده في المنَنِ والعطايا وتيسير أسبابِ الهداية والتّوفيق، وذلك بحكمة بالغة منه وهو اللطيف الخبير، ومنْ أسباب تخصيص بعض العباد بمزيد منَ المنن والتوفيق لمرضاته سبحانه صلاحيةُ قلوبهم باتصافهم بصفة الشّكر، ويحرُم غيرهم من ذلك المزيد لعلمِ الله تعالى بما في قلُوبهم مِنْ عدم تقدير المنن وحبها، وعدم الالتفات إلى شكرها والعمل بموجباتها، وقد بيَّن ربنا عز وجل أنَّ أهل الشُّكر هم المستحقُّون لمنَّته من بين عباده في قوله: (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) (الأنعام:53) [1]. وربما دلَّ على هذا المعنى قوله تعالى : (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) (الأنفال: 70).

ثانيا : الشكر حافظ للنعم من الزوال

إذا شكرَ العبد نعمةً من النِّعم التي أنعم بها الله عليه، كان ذلك الشّكر سببا لبقائها ودوامها وحفظها وعدم زوالها، وقد صحَّ عن عمر بن عبد

---

[1] / الفوائد لابن القيم (ص: 25، 205).

العزيز أنّه قال :«قَيِّدُوا النِّعَمَ بِالشُّكْرِ»[1]، وهذا من أظهر آثار الشكر في الدنيا وأحبها إلى المرء، فإنه يحبُّ بقاء النعَم التي هو فيها ويكره زوالها، وفي قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الأنفال:53) دِلالة على هذا المعنى؛ فتغيير النعمة إزالتها عن الأمم والأفراد مرتبط بتغيّر حالهم تجاهها، فالنّعمة باقية ما داموا شاكرين، وسيكون زوالها عدلا إذا ما هم تركوا شُكرها كما قال سبحانه : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل:112). ومما يدلُّ على أنَّ الشكر حافظ قوله تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم :7) لأنَّ الزّيادة إنّما تكون على أصل النِّعمة المحفوظ، وقد قيل :"وإذا لم يشكر عليها انقطع مزيده، ومن انقطع عنه المزيد فهو في نقصان"[2]

ثالثا : الشكر سبب للمزيد

كما أنّ الشّكر سببٌ للحفظ؛ فهو سببٌ للمزيد كما هو نص الآية السابقة، ولذلك جاء الأمر بالشكر عقيب الأمر بالأكل من الطيبات:

---

[1]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم 27).

[2]/ قوت القلوب لأبي طالب المكي (1/ 348).

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (البقرة: 172). و"من جعل الحمدَ خاتمةً للنعمة، جعله الله فاتحةً للمزيد"[1]. وقيل "الشّكر قيدُ النعم الموجودة، وصيدُ النعم المفقودة"[2]، قال بعض السلف: "النعم وحشية فقيّدوها بالشكر"، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لرجل من همذان: "إنّ النعمة موصولة بالشكر، والشّكر يتعلّق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيدُ من الله حتى ينقطع الشّكر من العبد"[3]. قال ابن القيم: "ولهذا كانوا يسمون الشّكر: الحافظَ، لأنّه يحفظ النّعم الموجودة، والجالبَ، لأنّه يجلُب النّعم المفقودة"[4].

رابعا : الشكر سبب سعادة النفوس وراحتها

ومن أعظم ثمار الشّكر التي يجنيها العبد معجّلةً في الدنيا، أنْ يرزقه الله السّعادة وراحة البال وانشراح الصّدر، وفي هذا يقول السعدي: «الشّاكرون أطيب الناس نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرهم عيوناً، فإنّ

---

[1]/ ربيع الأبرار للزمخشري (5/ 283).

[2]/ مدارج السالكين (2/ 235).

[3]/ عدة الصابرين لابن القيم (120).

[4]/ عدة الصابرين لابن القيم (120).

قلوبَهم ملآنةٌ من حمده والاعتراف بنعمه، والاغتباط بكرمه، والابتهاج بإحسانه، وألسنَتهم رطبةٌ في كل وقت بشكره وذكره، وذلك أساس الحياة الطيّبة، ونعيم الأرواح، وحصول جميع اللذائذ والأفراح، وقلوبهم في كلّ وقت متطلّعةٌ للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوى ويزيد»[1].

الفرع الثالث: الشكر وآثاره الأخروية

أولا: الشكر أمان من العذاب

من ثمار الشكر الأخروية أنّه مانع من عذاب الله تعالى، كيف لا وهو مظهرُ التوحيد محبةً وإجلالاً ومعرفةً وقصدًا وطلبًا، وكونُه سببا لحفظ النعم وزيادتها مستلزمٌ لمنع حلول العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وقد قال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً) (النساء:147)، قال قتادة:"إن الله جل ثناؤه لا يعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا"[2]. وهذا الجزاءُ المقابل للشّكر من ربنا عز وجل هو من

---

[1]/ الرياض الناضرة للسعدي (80).

[2]/ تفسير الطبري (7/ 624).

مقتضيات اتصافه سبحانه بصفة الشّكر، كما أنّه منْ مقضيات غناه سبحانه عن عبادة العباد وعن تعذيبهم.

ثانيا: الشكر موجب للأجر الجزيل في الآخرة

إنّ العبد ليطمع في جزاء الدنيا، وإنّ المؤمن قد تعلّق قلبه بجزاء الآخرة ، فلا يزال يشكرُ ويكرّر الشكرَ طمعا في وعد الإله سبحانه المتكرّر في كتابه، كقوله: (وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:144) وقوله: (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:145). وحصول الجزاء في الدنيا لا ينقص شيئا من جزاء الآخرة بل هو عاجل بشرى المؤمن، قد قال سبحانه:(كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ) (القمر:35) ولذلك قال ابن كثير في تفسير آية آل عمران:« سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم»[1]. لكن جزاء الآخرة أعظم وقْعا في نظر المؤمن الشّاكر؛ لأنّ فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأبهم الله سبحانه الجزاء ولم يعيّنه ليدلَّ على كثرته وعظمته[2]. كما أنّه أطلقه ولم يقيّده بالمشيئة كما قيّده في محال أخرى كقوله تعالى: (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء) (التوبة:28)

1/ تفسير ابن كثير (2/ 130).

2/ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: 112).

وقال:(وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ) (المائدة:40) للدّلالة على نجاز وعد الله تعالى وعمومه لكلِّ شاكرٍ صادق[1].

ثالثا: الشكر سبب لرضا الله تعالى عن عبده

من الآثار والثمار التي دلَّت عليها النصوص أنّ الشّكر موجبٌ لرضا الرحمن سبحانه على العبد، هذا الرّضا الموجب للمغفرة والرحمة والإنعام ورفع العذاب، كما قال تعالى: (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) (الزمر:7) وهو رضا عن الفعل والفاعل معا. قال النبي صلى الله عليه وسلم :«إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[2]. ومن مقتضيات الرّضا مغفرة الذنوب وقد صرَّح به نبينا صلى الله عليه وسلم فقال: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3]. وهذه المغفرة بهذه الصفة مِنْ كرم الله تعالى وكمال شكره.

---

[1]/ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: 117).

[2]/ رواه مسلم (رقم: 2734).

[3]/ رواه أبو داود (رقم: 4023) والترمذي (رقم: 3458) واللفظ له، وحسنه الألباني.

وإنّ رضا الله تعالى أعظمُ غايةٍ يطلبها المؤمن الصادق المحبُّ كما قال تعالى: (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ) (التوبة :72) وليس الرضا هو المغفرة وليس هو دخول الجنّة وإن كانا جميعا من لوازمه، بل شيء زائد عليهما كما دل عليه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا »[1].

رابعا: محبة الله تعالى للشاكرين

إنّ الله تعالى صرّح في كتابه أنّه يحبُّ الصابرين والتوّابين والمتوكّلين والمقسطين والمحسنين والمتطهّرين، وقد سمّى نفسه حليما وتوّابا ووكيلا ومقسطا، وسمّاه نبيه بالمحسن والقدوس، وأخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنّه سبحانه يحبُّ موجب أسمائه وصفاته، فهو سبحانه جميل يحبُّ الجمال عفوٌّ يحبّ العفو، ورفيق يحبّ الرفق. فلا جرم أنّ الله سبحانه الشاكر الشكور يحب الشكر والشاكرين.

---

[1]/ رواه البخاري (رقم: 6549) ومسلم (رقم: 2829).

قال ابن القيم:«ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحبَّ خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أنّ أبغض خلقه إليه من عطّلها واتّصف بضدّها، وهذا شأن أسمائه الحسنى أحبّ خلقه إليه من اتّصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يُبغض الكفور الظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان والمهين واللئيم، وهو سبحانه جميل يحبّ الجمال، عليم يحبّ العلماء، رحيم يحبّ الراحمين، محسنٌ يحبّ المحسنين، شكور يحبّ الشاكرين، صبور يحبّ الصابرين جواد يحبّ أهل الجود، ستّار يحبّ أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحبّ إليه من المؤمن الضعيف عفوٌّ يحبّ العفو، وترٌ يحبّ الوتر، وكلُّ ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكلّ ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها»[1].

خامسا: الشكر صفة أهل الجنة

المتأمل لحال أهل الجنة وما حباهم الله جل جلاله من النعيم؛ يجدهم يُكثرون من حمد الله تعالى إذا دخلوا الجنة, واستقرّوا في منازلهم العامرة بالنعيم، ورأوا فيها ما أعده الله لعباده الصالحين وذاقوا حلاوته، كما ربنا سبحانه : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا

---

[1]/ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص: 282-283).

أَنْ هَدَانَا اللَّهُ) (الأعراف:43)، وقال: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّـذِي أَذْهَـبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) (فاطر:34).

المطلب الخامس : أسباب تحصيل عبادة الشكر

بعد أن عرفنا مفهوم هـذه العبـادة ووجوبهـا وفضـلها نـأتي إلى ذكـر أسباب تحصيلها على وجه الكمال الواجب أو المستحب، وسبل تقويتها في قلوب العباد المؤمنين بالله تعالى، والذي نؤكد عليه أن أصل العبادات القلبية كلها موجود في قلوب الموحدين، ولكنها تضعُف وتقوى بحسب الأحوال والأسباب، وهذا ما يصنع الفارق بين المسلم والمؤمن والمحسن، وبين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، وأما فقدانها من أصلها فهو الذي يدخل صاحبه في الكفر والنّفاق الأكبر، وما يقال في شكر الله تعالى المقابل للكفر، يقال في محبّة الله وتعظيمه وخوفه ورجائه والإنابة إليه والانقياد له.

أولا : ذكر وجوب العبادة وذكر فضلها

أوّل الأسباب التي تجعل العبد يعتني بتحقيق عبادة الشّكر بالقلب واللسان والجوارح: أن يعلم وجوبها وضرورتها وخطورة فقدها، وأن يديم ذكر هذا الوجوب، وإن غفل عنه فلابد أن لا تطول هذه الغفلة، فإنّ الجهل والغفلة من أعظم أسباب هلاك العبد؛ لأنهما يؤدّيان إلى قسوة القلب وربما إلى موته والعياذ بالله، حتى يصبح لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا. ويزيد من حرص العبد على دوام حال الشّكر

وتجديدها والاستكثار من مظاهرها وعدم القناعة بالقدر المجزئ منها؛ ذكر تلك الفضائل التي وردت في كتاب الله تعالى وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ والنفس مجبولة على الطمع وخير ما تطمع فيه رضا الله ومحبّته وما عنده من فضل ونعمة.

ثانيا: الوقوف على حقيقة النعم

من الأسباب الموصلة لتحقيق الشّكر أن نعرف حقيقة النّعم، لأنّ من جهلها غفل عنها وعن شكرها لا محالة، لأنه قد يستهين بها ويراها قليلة أو حقا له، فيا أيها العبد إن النعم الموجبة للشكر هي كل ما وهبك المولى عز وجل إياه:

-فالنعمة تشكر سواء حصلت بطلب منك ودعاء أو بغير طلب، فلا تغفل عن نعمة الحياة وسلامة الأعضاء والحواس، ولا تحصر مفهوم النّعمة فيما كنتَ ترجوه ثم حصلت عليه فنعم الله أكثر من ذلك.

-وتُشكر سواء حصلت بجهد منك وتسبب أو من دون ذلك، ولا تحصر النعم فيما أتاك من غير جهد وعناء؛ دون ما كان لك في سبيل تحصيله جهد كبير، فالكلّ من نعم الله تعالى وبفضله وتوفيقه كلّلت جهودك بالنجاح، فإيّاك أن تقول كما قال قارون (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) (القصص: 78) وقل كما قال سليمان (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) (النمل: 40).

-وتُشكر سواء كانت مادية أو معنوية، فلا تقصر نظرك في الماديات الزائلة من مال وجاه ونحوه، وانظر إلى نعمة الإيمان ونعمة الأمن ونعمة السعادة والراحة النفسية، ونعمة صلاح الأولاد.

-وتُشكر النعمة سواء كانت دائمة أو مؤقتة، فما تراه نعمة دائمة تستحق الشكر فهي في الحقيقة زائلة ومؤقتة ، وما تراه مؤقتا غير موجب للشكر قد يطول نفعه لك أكثر مما تعده دائما، فاشكر التوفيق للعمل ولو كان مؤقتا واشكر السكن ولو كان مؤقتا، واشكر الفرح والسرور ولو كان مؤقتا، وبشكر المؤقت يأتي المزيد والدائم.

-وتُشكر سواء كانت خاصة بك أو عامة للناس، فالنعمة ليست مقصورة على ما فضلت به الخلق بل هي عامة لما هو مشترك، وأكثرنا يغفل عنه فالماء العذب الذي تشربه نعمة والهواء الذي تتنفّسه نعمة، والتربية والتعليم الذي تلقيته نعمة، وكمال جسمك وعدم نقصه نعمة وكل ما تنتفع به لتستمر حياتك نعمة، والحياة نفسها نعمة.

-وتُشكر سواء كانت قليلة أو كثيرة، وبعض الناس لا يرى نعمة الرزق إلا فيمن كان ثريا، ولا يرى نعمة الصحة إلا فيمن سلم من كل مرض، ولا يرى نعمة العلم إلا فيمن نال درجة عالية، وهذا غلط.

ثالثا: تذكر النعم وإمعان النظر في كثرتها

ذكرنا فيما سبق أن من أسباب الشّكر الوقوف على حقيقة النعم، ويتبعه استحضار ذكرها وإمعان النظر في كثرتها، ويدل على ذلك أن الله تعالى قد أوجب علينا الشكر في مواضع مقرونا بذكر النّعمة فقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (فاطر:3)، فالمقصود من الذكر لها هنا هو الذي يترتب عليه شكرها ومعرفة عظمها وقدرها[1]. ومثله قوله تعالى: (وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ) (البقرة:231) وفي قوله تعالى : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل: 78) ربطٌ بين النعمة وشكرها، وفي هذا المعنى يقول بكر بن عبد الله المزني :« كن عَدّاداً لنعم الله ، فإنّك إن أحصيتها كنت قَمِناً أن تشكرها، وإذا نسيتها كنت قَمِناً أن تكفرها »[2].

---

[1] / التحرير والتنوير لابن عاشور (22/ 254).

[2] / ربيع الأبرار للزمخشري (5/ 278).

ونعم الله تعالى نحن نتقلب فيها ليلاً ونهاراً، والعبد مطالب بشكر الله على عمومها، ولكنّه يغفل عن شكر النّعم الظاهرة العظيمة؛ فكيف بالخفية التي يلطف الله تعالى بها بعباده، وسبب ذلك هو الغفلة عن ذكرها، وإنّ من أسباب الغفلة كون النعمة دائمة مألوفة أو كونها عامة عند الناس، وأنّى لمن غفل عن النعمة أن يؤدي بواجب الشكر الذي لا يكون إلا مع معرفة النعمة ونسبتها إلى صاحبها، وصدق من قال: «النّعمة من الله على عبده مجهولة، فإذا فُقدت عُرفت»[1]. ومن أسباب الغفلة عن النّعم أيضا كثرتها وتتابعها على العبد فالمتأخر منها ينسي المتقدم وإن كان دائما، فمن شكر منا ربما لا يشكر إلا المتجدد منها وهذا نقص.

ومع أننا في زمان صارت فيه نعم الله تعالى ظاهرة بادية، نطعم ألذ الطعام ونلبس أحسن الثياب، ونركب أهنأ المراكب، ونبيت في أوسع المنازل؛ فإنه لا يُسمع من أكثرنا إلا الشكوى.

ونقدم في هذا المقام نعمة واحدة من نعم الله نتأملها ونتفكر بعض التفكر فيها، لنرى عظيم فضل الله تعالى ومنته علينا، وهي نعمة الأكل، التي تتكرّر يوميا وقد ألفناها حتى صرنا لا نشعر بكونها نعمة تنطوي

1/ ربيع الأبرار للزمخشري (5/ 283).

تحتها نعم لا تحصى؛ فالله سبحانه خلق لنا الطعام الطيب بألوانه وأنواعه، ثم ركّب فينا شهوة إليه، وخلق لنا حاسة الذوق إذ بها نلتذ به ونتمتع، وخلق لنا الأعضاء التي نتناول بها هذا الطعام، والأعضاء التي تتولى مضغه وطحنه وعصره وتحليله وأخذ المفيد منه ليصير دما ولحما وطاقة يستعملها الجسم، فهذا الفم بما حوى والمريء وما أفرز والمعدة وما حوت وأفرزت، كلها من النعم ، وإذا كان العبد يتحكم في حركة يده وفمه؛ فمن حرك معدته وأمعاءه؟ وهذا الطحن والعصر قد تصورناه لكن كيف تم التمييز بين المفيد وبين الفضلات، وكيف تم تحويل الطعام إلى طاقة ولحم ودم؟! وبهذا الطعام تستمر نعمة الحياة وتقوى على أداء الواجبات فلا شك أن هذا التأمل مع سطحيته كاف لتعظيم هذه النعمة ولشكرها وحمد الله عليها.

رابعا: تعظيم النعمة بالنظر إلى من هو دونك

من أسباب الشكر تعظيم قدر النعم وإن قلّت في نظرنا، ولابد أن نلحظ أن الله تعالى قد أوصلها إلينا تفضلاً منه وامتناناً بلا باستحقاق، وإن من أعظم الجهل أن يرى العبد النعمة يسيرة لا تستحق الشكر، ومن عظيم الغفلة أن يشتغل المرء بطلب المزيد عن شكر المنعم سبحانه، ومن سبل تعظيم النعمة النظر إلى من حرمها من الناس أو من هو دوننا

فيها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:« إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ »، وفي رواية: « انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ» [1]. فالعبد إذا نظر إلى حال من فُضِّل عليه بنعم ربما احتقر ما بيده منها، ومن احتقر نعمة قصّر في شكرها؛ وإذا نظر إلى حال من هو دونه فهو ادعى إلى تعظيم ما أعطاه الله تعالى وفضّله به على غيره، فلا يعيب نعمة ولا ينتقص عطية، ويقوم بحق المحبة والشكر والتواضع لله تعالى.

فمن كان يعدُّ نفسه فقيرا فلينظر إلى من هو دونه ممن ابتلي بالفقر المدقع وقهرته الديون، أو لم يجد من يقرضه، فإن فعل فسيرى نفسه من أهل الستر أو الغنى، ومن مرض فلينظر إلى من ابتلي بالأسقام المزمنة أو فقدان الحواس والآلات؛ فسيجد نفسه في عافية، وربما سيرى نفسه من أهل الصحة وإن كان مريضا فعلا.

ومهما أصابك أيها العبد من بلاء فقلّب النظر فيمن حولك فستجد من هو أشد منك بلاء، سواء كان مرضا أو نقصا في الجسم أو حاجة أو ظلما أو هما وحزنا ، وكم من إنسان كان كثير الشكوى فإذا دخل

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 2963).

المشفى ونظر في حال من هم فيه؛ عرف قدر ما ينعم فيه من نعمة وزال عن قلبه السخط وكف لسانه عن الشكوى.

بل انظر أيها العبد إلى من ابتلي بجمع الدنيا واللهث وراء حطامها، وهو ممتنع عما يجب عليه من حقوق فيها، فإن فعلت علمت أنّ المنع من فضول النعم هو في حد ذاته نعمة، لأن فيه سلامة من فتنة قد لا تثبت أمامها، وما أحسن قول القائل: «لَنِعمُ الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرضَ لنبيه الدنيا، فلأَنْ أكون فيما رضي الله لنبيه وأحبَّ له أحبُّ من أن أكون فيما كرهه له وسخطه»[1].

خامسا: تعظيم النعمة بمقارنة حالنا بماضينا

ومن أسباب الشكر تعظيم النعمة بأن يتذكر العبد ماضيه وما مر عليه من أيام، وكيف توالت عليه نعم الله تعالى، ولا يخلو العبد من محن مر بها ثم فرجت وانقلبت منحا، ومن ابتلاءات أصابته ثم زالت وأخلفه الله خيرا مما أخذ منه، ومما يدلنا على هذا المعنى قوله تعالى مذكراً نبيه صلى الله عليه وسلم بعض نعمه عليه : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ

---

[1]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم : 112).

(9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى: 6-11). فبعد أن ذكره بالمنح التي أعقبت المحن أمره بالشّكر عملا وقولا.

فتأمل أيها العبد في حياتك قبل حصول هذه النعم، فمن كان غنياً فليذكر حال فقره، ومن كان صحيحاً فليذكر حاله يوم كان مريضاً، ومن ملك بيتاً فليذكر حاله يوم كان لا يملك بيتا فكان مستأجرا أو في بيت ضيق لا يرتضيه، وهكذا كل نعمة حادثة ينظر إلى حاله قبل حدوثها ويتذكر سالف أيامه ليعرف قدرها فيشكرها.

واعتبر بقصة الثلاثة من بني إسرائيل الذين أراد الله عز وجل أن يبتلي شكرهم؛ قصة الأبرص والأقرع والأعمى، حيث جلّى الابتلاء ما كان كامنا في بواطنهم وما كان سابقا في علم الله تعالى قبل أن يخلقهم، فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيراً فأعطاه الله البصر والغنى، وبَذلَ للسائل ما طلبه شكراً لله تعالى، وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحد ما كانا عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر، وزعما أن غناهما موروث لم يسبقه فقر، وقد غفلا عن أن الغنى الموروث أيضا موجب للشكر، فأنكرا ما كانا عليه أولاً من نقص وفقر، أصرا على عدم الشكر فتحقق فيهما كفر النعمة قولا وعملا.

ونحن نعيش أزمنة تكاثرت فيها الخيرات وتيسّرت فيها السّبل؛ إذا ما قورنت بما عرفه آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا في الماضي القريب والبعيد؛

ومهما كان سبب هذا التغيّر؛ فإنّ الله تعالى هو مغيّر الأحوال وميسّر الأسباب، الموفّق للخلق إلى الخير والهادي لهم إلى طرق الرّشاد، فله الحمد كلّه أولّه وآخره.

سادسا: مطالعة سير الصالحين

ومن أسباب تحصيل الشّكر مطالعة سير الصالحين؛ وتأمّل أخبارهم التي تجسدت فيها عبادة الشكر قولا وعملا، ومن ذلك ما أثر عنهم من عبارات الحمد والثناء على رب الأرض والسماء، وما أكثرها وما أبلغها، ونشير هنا إلى شيء من أخبار الشافعي الذي نشأ فقيرا فلمّا فتح الله عليه صار موصوفا بالسخاء، بل أجمع أصحابه على أنه كان أسخى الناس، وكان إذا وصله رزق أسرع إلى إنفاقه، حتى أنه قال أفلست في دهري ثلاث مرات، فقد وصله هارون الرشيد بخمسة آلاف دينار فلم يدخل مكة إلا بمئة منها بعدما أنفقها في العراق على القرشيين، وعاد يوما من اليمن إلى مكة بعشرة آلاف دينار، فقصده الناس وهو في موضع خارج مكة؛ فما برح حتى ذهبت كلّها[1]، ومما نجده في سيرهم إضافة إلى المواقف كلمات الشكر والحمد الثناء التي كانوا يرددونها ويتمثّلونها ومن ذلك ما أثر عن الحسن البصري أنّه كان إذا افتتح

---

[1]/ مناقب الشافعي للبيهقي (2/ 220).

حديثه قال:« الْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ كَمَا خَلَقْتَنَا، وَرَزَقْتَنَا، وَهَدَيْتَنَا، وَعَلَّمْتَنَا، وَأَنْقَذْتَنَا، وَفَرَّجْتَ عَنَّا، لَكَ الْحَمْدُ بِالْإِسْلَامِ، وَالْقُرْآنِ، وَلَكَ الْحَمْدُ بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْمُعَافَاةِ، كَبَتَّ عَدُوَّنَا، وَبَسَطْتَ رِزْقَنَا، وَأَظْهَرْتَ أَمْنَنَا، وَجَمَعْتَ فُرْقَتَنَا، وَأَحْسَنْتَ مُعَافَاتَنَا، وَمِنْ كُلِّ وَاللَّهِ مَا سَأَلْنَاكَ رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا، فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا كَثِيرًا، لَكَ الْحَمْدُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيْنَا فِي قَدِيمٍ وَحَدِيثٍ، أَوْ سِرًّا أَوْ عَلَانِيَةً، أَوْ خَاصَّةً أَوْ عَامَّةً، أَوْ حَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ، أَوْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ، لَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ»[1].

سابعا : النظر في عاقبة من كفر نعم الله تعالى

من أسباب الشّكر أخذُ العبرة من عاقبة من كفر بنعمة الله تعالى، من الأمم الخالية والناس السابقين، لأنّ الله تعالى قد فتح أبواب الخير والأرزاق على أقوام فلمّا لم يشكروها سلبها منهم، وربما أعقبهم عذابا ليكونوا عبرة لغيرهم، ومن ذلك أخبار التي كتاب الله تعالى كخبر سبأ حيث لخص ربنا عز وجل قصتهم في قوله: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ

---

[1]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم: 11).

بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (سبأ:15-17).

ومنها خبر قارون الذي قال فيه سبحانه : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) (القصص: 76-78).

ثامنا : الخوف من زوال النعم وسوء الظن بالنفس

ومن أسباب تحصيل الشّكر الخوف من زوال النعم؛ وذلك يحصل بتأمّل عاقبة من كفر بأنعم الله، وبسوء الظن بالنفس فلا نزعم بحال من الأحوال أنّنا قد أدّينا الشّكر الواجب علينا، فالنعم تستقرّ بالشكر وتزداد، وقد يكون عدم الشكر سببا لزوالها قال الفضيل بن عياض: «عليكم بملازمة الشكر على النّعم فقلَّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم»[1]. واستقرارها وزيادتها ليس دليلا على أننا أدّينا حقها، فقد

---

[1]/ قوت القلوب لأبي طالب المكي (1/ 349).

يكون استقرارها استدراجا من الله تعالى أو إمهالا منه سبحانه لنا، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) (لأنعام :42-44) [1]. وفي هذا المعنى يقول أبو حازم سلمة بن دينار : «إذا رأيت الله عز وجل سابغ نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره» [2].

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [الأعراف : 182-183] . قال سفيان الثوري في تفسيرها :« نسبغ عليهم النعم ونمنعهم من الشّكر، كلما أحدثوا ذنباً أُحدثتْ لهم نعمة» [3].

تاسعا : تذكر السؤال عن النعم

ومن أسباب الشكر أن يعلم العبد أنّ الله تعالى سائله يوم القيامة عن النعم وما عمل فيها، كثيرها وقليلها وعظيمها ويسيرها، كما قال سبحانه: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر:8) أي لتُسألنّ يوم

---

[1]/ رواه أحمد في المسند (28/ 547) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (413).

[2]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم: 31).

[3]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم :116).

القيامة عن النعم من صحة وأمن ورزق ونحوها؛ وبماذا قوبلت هذه النعم من شكر [1]. وقد بيَّن ذلك صلى الله عليه وسلم فقال :« لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أفناهُ ؟ وَعَنْ عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ ؟» [2]. وقال أيضا:« إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي الْعَبْدَ مِنْ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ» [3]. فلا شكّ أن العبد إذا ذكر هذا السؤال؛ الذي سيكون لأناس سؤال توبيخ، ولآخرين سؤال تشريف؛ سيُسارع إلى مراجعة نفسه ومحاسبتها عن مدى شكرها لنعم الله تعالى .

عاشرا : التواصي بشكر نعم الله والقيام بحقها

من أسباب دوام الشكر تواصي الناس به وتذكير بعضهم بعضا، وقد كان السلف يلهجون بشكر الله تعالى وحمده والثناء عليه، عند كل لُقِيٍّ واجتماع، وربما كان بعضهم يتقصّد سؤال أخيه عن حاله مع قرب العهد بينهما ليسمع منه حمد الله تعالى والثناء عليه سبحانه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ

---

[1]/ تفسير ابن كثير (8/ 474).

[2]/ رواه الترمذي (رقم: 2417) وصححه.

[3]/ رواه الترمذي (رقم: 3358) وصححه الألباني.

ثُمَّ سَأَلَ عُمَرُ الرَّجُلَ كَيْفَ أَنْتَ فَقَالَ أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ فَقَالَ عُمَرُ ذَلِكَ الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ»[1]. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « إِنْ كُنَّا لَعَلَّنَا أَنْ نَلْتَقِيَ فِي الْيَوْمِ مِرَارًا يَسْأَلُ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَأَنْ نَقْرُبَ ذَلِكَ إِلَّا لِنَحْمَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ »[2].

الحادي عشر : الاستعانة بالله وسؤاله التوفيق إلى الشكر

من أسباب تحقيق الشّكر دعاء الله تعالى أن يلهمنا شُكره، والاستعانة به في تحقيق آداب هذا الواجب، الذي لا قيام للعبد به إلا بتوفيق الله وتسديده، وقد كان هذا شأن عباد الله الصالحين ورسله الكرام؛ فكان من دعاء سليمان عليه السلام: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل:19). وقال سبحانه عن العبد الصالح: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الأحقاف:15).

وكان من دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم :« رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ

---

[1]/ رواه مالك في الموطأ (2/ 961) وإسناده صحيح.

[2]/ الزهد والرقائق لابن المبارك (رقم: 207).

الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»»[1]. وثبت من وصيته صلى الله عليه وسلم لمعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : « أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[2].

ومع اتخاذ كلّ هذه الأسباب فإنّنا على إياس من بلوغ الشّكر الكامل المستحق لربنا عز وجل، فإنّ العبد عاجز عن عدّ نعم الله تعالى فكيف يقوم بحقّ شكرها، وإنما يكون شاكرا إذا بذل قصارى جهده لتحقيق العبودية لله عز وجل كما قال تعالى:(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن:16).

1/ رواه أبو داود (رقم:1510) وابن ماجة (رقم:3830) والترمذي (رقم:3551) وصححه.

2/ رواه أبو داود (رقم:1522) والنسائي (رقم:1303) وصححه الألباني.

المطلب السادس : مظاهر الشكر العملية الباطنة والظاهرة

الفرع الأول : مظاهر الشكر الباطنة

أولا : تحقيق العبودية القلبية

أهم مظاهر الشّكر الباطنة تحقيق العبودية بمعانيها القلبية التي هي أصل الإيمان، محبةً للمنعم وتعظيمًا له سبحانه، وخوفًا منه ورجاء فيه؛ فإنّ القلوب مجبولة على الميل إلى من أحسن إليها، ومن تأمّل تفاصيل العناية الإلهية يجد نفسه مدفوعة إلى محبة الإله دفعًا وإلى تعظيمه والطمع فيما عنده والخوف من الحرمان مما عنده، وهذه المعاني هي أسس العبودية لله تعالى، ثم إذا أدرك العبد أنّ الله تعالى هو المتفرّد بخلق النّعم وملكها وإيصالها للعباد أثمر ذلك التوحيد العملي القلبي الذي أُمرنا به فيكون الإله هو المحبوب الأول، ولا يُعظم أحد مثل تعظيمه ولا يُرجى إلا هو ولا يُخاف إلا منه سبحانه.

ثانيا : تحقيق المحبة ولزوم المتابعة

من مظاهر الشكر القلبي الواجبة محبة الله تعالى صاحب الفضل والإنعام، ومن لوازم هذه المحبة وعلامات صدقها بمتابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وجميع أحواله، قال تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (آل

عمران:31). يؤكّد هذا اللازم أنّ بعثة محمد ﷺ كانت سببا لأعظم نعمة وهي الهداية إلى الصراط المستقيم، ولا تُشكر هذه النعمة إلا بلزوم هذا الصراط من غير انحراف عنه يمينا أو شمالا ولا زيادة أو نُقصانا.

ثالثا: الافتقار إلى الله تعالى

بعد إقرار القلب وإعلانه بأنّ ما بالعبد من نعمة فهو من الله تعالى وحده، ينبغي أنْ يقرَّ أيضا بأنّ حصول هذه النعم محض تفضّل على العباد وإحسان من الخالق جل جلاله، وأنّ العبد مهما اجتهد وكان صالحا؛ فإنّه لا يجوز له أن يعتقد استحقاق شيء منها، لأنّ كل صلاح وكل عمل وإصلاح إنما هو بتوفيق من الله تعالى، فلا حول ولا قوة إلا بالله، فنحن نتقرّب إلى الله بنعمه رجاء حصول نعمه، وفي كل حال نحن مفتقرون إليه سبحانه، كما قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر:15)

رابعا : التواضع لله تعالى

ومن لوازم معنى الافتقار تعظيم الله تعالى والتواضع له، فالمعظم لله تعالى يستكثر الْقَلِيل من نعم ربه عليه -ونعمه لا تعدّ ولا تحصى- والمتواضع يستقل الكثير من عمله، يستكثر النعم ويستقل الأعمال لعلمه بتقصيره وحجم ذنوبه[1]، واعترافا بجهله وعجزه وعدم قدرته،

[1]/ انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 194).

وقد أرشدنا نبينا صلى الله عليه وسلم إلى معنى هذا التواضع، ومن ذلك أن علمنا أن نقول بعد كل طعام: «الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة »[1]. فنحن نقول هذا رغم أن أحدنا قد يكون اتخذ من الأسباب ما اتعبه وأنهكه من أجل حصول هذا الرزق، وقد حذرنا ربنا من الاستعلاء والكبر المثمر للجحود والإنكار من خلال خبر قارون الذي قال عما أنعم الله به عليه: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) (القصص:78).

خامسا: إضافة النعم إلى الله تعالى

لا يتم إيمان المرء إلا بالاعتراف القلبي ثم اللساني بأن النعم كلها من الله، قال السعدي في قوله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ) (النحل:53): «الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً...وبذلك يتمُّ التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه، فذلك كافر ليس معه من الدين شيء. ومن أقرّ بقلبه أنّ النّعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره - كما هو جار على ألسنة كثير من الناس- فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأنْ لا يضيف النّعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد

---

[1]/ رواه أبو داود (رقم: 4023) والترمذي (رقم: 3458) وحسنه الألباني.

نفسه على ذلك، ولا يتحقّق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النّعم إلى الله قولاً واعترافاً»[1].

سادسا: القناعة والرضا بقسم الله بين عباده

من لوازم الشّكر القلبي القناعة، وقد قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»[2]. وجعل هذه القناعة سببا للفلاح وقال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»[3]. ويتبع القناعة الرضا بقسم الله تعالى بين عباده عطاء ومنعا، وطهارة القلب من حسد كلّ من فُضّل بنعمة من النعم.

الفرع الثاني: مظاهر الشكر الظاهرة

أولا : تحقيق عبودية الجوارح

لن تكون دعوى شكر القلب صادقةً حتى يصحبها شكر اللسان وسائر الجوارح بفعل الواجبات وترك المحرمات، ومن تمكّنت المحبة من

---

[1]/ القول السديد شرح كتاب التوحيد للسعدي (ص232).

[2]/ رواه ابن ماجة (رقم: 4217) وصححه الألباني.

[3]/ رواه مسلم (رقم: 1054).

قلبه زاد على ذلك فعل المستحبات وترك المكروهات، وارتقى بذلك إلى درجة السابقين المقربين[1].

وكما لا يصدق شكر القلب؛ فإنه لا يكفي معه شكر اللسان حتى تتّبعه سائر الجوارح، لأنّ خلاصة حقيقة الشكر هي "القيام بطاعته والتقرب إليه بأنواع محابّه ظاهراً وباطناً"[2]، وشكر الجوارح أنْ تقوم بواجبها من العبودية لله رب العالمين، إذ لكلّ جارحة حظّها من العبودية، فاللسان عبودية وللسمع عبودية وللبصر عبودية ولليد عبودية وللرجل عبودية.

وقد تجتمع عبودية الجوارح كلّها في بعض المظاهر، كالصلاة المسماة إيمانا والتي هي أظهر علامات العبودية، وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يكثر منها في الليل فلمّا قيل له قال « أفلا أكون عبداً شكوراً»[3].

ومن مظاهر عبودية الجوارح السجود كسجدة الشكر عند تجدد النعم قال أبو بكرة رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا

1/ جامع العلوم والحكم لابن رجب (2/ 85).

2/ الفوائد لابن القيم (128).

3/ رواه البخاري (رقم: 4836) ومسلم (رقم: 2819).

جاءه أمر بشر به خرَّ ساجدا؛ شاكرا لله[1]، وسجد النبي صلى الله عليه وسلم في (ص) وقال: «سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً»[2].

ومن المظاهر التي تجتمع فيها عبودية الجوارح وشكرها الصوم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه»[3].

ثانيا: تحقيق التوحيد العملي

من أهم لوازم الشكر تحقيق التوحيد العملي الذي أصله ودافعه في القلب، وقد ذم الله تعالى المشركين الذين يعرفون أن الله تعالى هو المتفضل بالنعم عليهم، ثم ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، وينسبون النصر والرزق والنفع والضر إلى غيره، فقال تعالى: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (النحل: 83).

وعن ابن عباس ﷺ قال: مُطِرَ الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أصبح من الناس شاكر ومنهم

---

[1]/ رواه أبو داود (رقم: 2774) وابن ماجة (رقم: 1394) وصححه الألباني.

[2]/ رواه النسائي (رقم: 957) وصححه الألباني.

[3]/ رواه البخاري (رقم: 3397) ومسلم (رقم: 1130).

كافر، قالوا : هذه رحمة الله، وقال بعضهم : لقد صدق نوءُ كذا وكذا[1]

فأما المؤمن الشاكر فهو من نسب المطر إلى الله تعالى وجعله من رحمته وأما الجاحد الكافر فمن نسبه إلى النجوم ، فلابد من إضافة النعم إلى الله وحده ولا يجوز أن تضاف إلى غيره.

وفي الناس اليوم من ينسب الخير والفضل لغير الله تعالى كمن ينسب الرزق إلى مدد الأولياء -أمواتا واحياء -وبركاتهم ويزعم أنهم يحرسون المدن ويحفظون العباد، ومن يعتقد الشفاء فيهم وفي الجن وفي جمادات أخرى لا تنفع ولا تضر، ولا خلاف أن تقديم الذبائح والهدايا والنذور من مظاهر الشكر، فإن قُدمت لغير الله كانت شركا لا شكرا. والواحد من هؤلاء لا يعدُّ في الشاكرين مهما أطال سبحته أمتارا، أو ثقل وزنها ودبجها أحجارا، حتى يصحح اعتقاده ويخلص في أفعاله سرا وجهارا.

ثالثا : صرف النعم في طاعة الله وعدم مبارزته بها

كما أن لكلّ جارحة من الجوارح عبودية، فإن لكل نعمة من النعم شكرا يخصها ويقابلها، غاية منتهاه أن تستعمل في طاعة الله، وأن لا يتوصل بها إلى معصيته، وقد لاحظ هذا المعنى بعض السلف فقال في

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 73).

حدّ الشّكر : « هو ألا يُستعان بشيء من نعم الله على معاصيه»[1].

وقيل: « الشكر ترك المعاصي»[2].

وقد قال الله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف:31) فنعمة الله لابد أنْ تُنفق فيما جُعلت له دون إسراف، والإسراف أن تبذل النعمة فيما لم تخلق له سواء كان محرَّما أو كان مجرَّد تضييع لها.

رابعا : دوام الذكر لله تعالى

من لوازم الشكر التام لله تعالى دوام ذكره سبحانه، وهذا الدوام مناسب لاتصال نعمه وتتابعها وكثرتها، وقد أمرنا الله تعالى بهما وقرن بينهما في قوله: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ) (البقرة:152)، وهما عبادتان متلازمتان، لأن الذكر له معنيان، أحدهما الذكر القلبي وهو موجب للشكر، والثاني الذكر اللساني وهو الثناء على الله بما هو أهله ولا يتم الشكر إلا به. وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الشاكرين بالطاعات وأدوم الشاكرين على الذكر، وقد علّمنا من الأذكار ما دوّن في أسفار.

---

[1]/ مدارج السالكين لابن القيم (2/ 236).

[2]/ الشكر لابن أبي الدنيا (رقم: 19).

خامسا : التحدث بنعمة الله تعالى

من مظاهر الشكر ولوازمه، ومن معاني الذكر لله أيضا التحدث بنعم الله تعالى على العبد، كما قال ربنا عز وجل (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى:11) وهذا التحدّث إنما يكون شكرا في المقامات التي فيها دعوةٌ إلى ردّ الفضل إلى الله تعالى وحسن الظن به والتوكل عليه، والتي لا خطر فيها على النّفس من داء الرياء، فقد لا يَحسن بالمرء أن يُحدّث الناس بنعمة التوفيق لصوم النافلة وصلاة الليل وصدقة السّر؛ إلا لمصلحة الحثّ على الطاعة ممن يُرجى الاقتداء به في ذلك، وأما الحديث عن النعم الظاهرة وعن رفع البلاء والشفاء واستجابة الدعاء، فهذا لا شك في دخوله في التحدث المحمود بإطلاق. وقد وردت في هذا السياق آثار عن السلف منها قول الحسن البصري: "أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر" [1]. وقال ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» [2].

سادسا: الرضا واجتناب الشكوى لغير الله

إنّ شكر النّعم واجبٌ، ونعم الله تعالى منها الدائم ومنها المتجدّد، ولا يجوز للعبد أن يقطع الشّكر إذا انقطع عنه آحادها وهو متنعّم في

---

[1] / رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم:33).

[2] / رواه الترمذي (رقم: 2819) وصححه الألباني.

متواترها ودائمها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[1].

ومن استحضر هذا المعنى بلغ مقام الرضا في كلّ حال، فلا يشكوا مُصابه بانقطاع النّعمة إلا لربه وخالقه، وربّما ارتقى إلى ما هو أعلى من ذلك؛ حين تستوي عنده الأحوال؛ فيشكُر الله تعالى على المكاره كما يشكُره على المحاب[2]، وأعلى مراتب الشكر أن يشهد العبد البلية نعمة فيشكر المبتلي عليها[3].

والشكوى صورٌ شتى، وهي على رُتب منها ما يضاد الرضا، ومنها ما يضاد الصبر الواجب؛ فتكون معصية قبيحة موجبة لسخط الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم:«إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[4]. قال الغزالي :« وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك

---

[1]/ رواه مسلم (رقم: 720).

[2]/ انظر: مدارج السالكين لابن القيم (2/ 243).

[3]/ انظر: عدة الصابرين لابن القيم (ص: 53).

[4]/ رواه الترمذي (رقم: 2396) وابن ماجة (رقم: 4031) وحسنه الألباني.

وبيده كل شيء؟! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو القادر على إزالة البلاء، وذلُّ العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذلٌّ»[1].

ومن تأمّل كلّ مُصاب أصيب به لوجد رحمة الله ماثلة فيه؛ فالمصيبة في الدنيا تخِفُّ إذا ما قورنت بمصيبة الدين، وكلُّ مصيبة وقعت على صفةٍ يمكن تصوُّرها على صفة أشدَّ منها، كما يُمكن تقدير وقوع غيرها قبلها وبعدها، ولذلك كان لزاما على العبد أن يحمد الله تعالى على كلّ حال، وأن يحتسب تكفير الذنوب والخطايا ورفع الدرجات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :«ما يصيب المسلم من نصب ولا وَصَب ولاهمٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه»[2].

سابعا : شكر الناس على إحسانهم

من لوازم شكر الله تعالى الظاهرة ؛ شكر إحسان الناس وقد قرّر هذا التلازم نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: «لا يشكرِ اللهَ من لا يشكر

---

[1]/ إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 84).

[2]/ رواه البخاري (رقم: 5640) ومسلم (رقم: 2572).

الناسَ »[1] ، والنـاس يُشـكرون باعتبـارهم وسـائل لحصـول نعـم الله وأسباب لها لا باعتبارهم منشئين، والله تعالى خالق النعم ومهيئ وسـائل حصولها، فالشّكر في الحقيقة كلّه لله تعالى، وإنّما أوجب ذلـك؛ لأنّ مـن كان شأنه جحد فضل الناس؛ لم يوفّق إلى شـكر الله تعـالى، وإذا تأمّلـت سبب الاحجام عن شكر الناس وجدتـه كـبرا واغـترارا بـالنفس، ومـن تحقّقت فيه هذه العلّة لا يمكـن أنْ يكـون شـاكرا لله تعـالى. وقـد جعـل القرطبي رحمه الله شكر النـاس ركنـا مـن أركـان الشـكر فـلا يصـحّ إلا به[2].

وقد وردت أحاديث نبوية تُبيّن كيفيّة هذا الشكر وأدنى أحواله فقـال ﷺ: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًـا فَكَـافِئُوهُ فَـإِنْ لَـمْ تَجِـدُوا مَـا تُكَافِئُونَـهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[3]. وقـال ﷺ:«مَـنْ صُـنِعَ إِلَيْـهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»[4].

وأوّل الناس دخولا في هذا الواجب هم الوالدان؛ فلا يشكر الله حـقّ شكره من لم يشـكرهما قـولا وعمـلا، قـال تعـالى: (وَوَصَّـيْنَا الْإِنسَـانَ

---

[1]/ رواه أبو داود (رقم: 4811) والترمذي (رقم: 1954) وصححه.

[2]/ الأسنى في شرح الأسماء الحسنى للقرطبي (1/ 328).

[3]/ رواه أبو داود (رقم : 1672) وصححه الألباني.

[4]/ رواه الترمذي (رقم : 2035) وصححه الألباني.

بوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:14) قال ابن عباس مفسرا الآية: «فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه » [1].

وبعد الوالدين يأتي الشيوخ المعلّمون فلهم حقّ الشّكر على كل من تعلّم على أيديهم في حياتهم وبعد مماتهم، وذلك بالثناء عليهم والدعاء لهم ونشر علمهم والترحّم عليهم، ومن أروع ما نُقل في هذا الصّدد ما أن الإمام أحمد قال يوما: «هذا الذي تَرَون كله أو عامته من الشافعي، ما بتُّ منذ أربعين سنة -أو قال ثلاثين سنة- إلا وأنا أدعو الله للشّافعي وأستغفر له» [2].

وكان عبد الرحمن بن مهدي هو من طلب من الشافعي -وهو في رتبة أقرانه-أن يؤلّف كتاب "الرسالة"، فلمّا انتفع بها صار عبد الرحمن لا يدَع الدعاء للشافعي وقال: «ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي فيها»، وصحّ عن صاحبه يحيى بن سعيد القطان الذي أبهرته الرسالة أيضا أنه قال:« أنا أدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربع سنين» [3] رحمهم الله أجمعين.

---

[1]/ الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي (2/ 107).

[2]/ مناقب الشافعي للبيهقي (2/ 254).

[3]/ مناقب الشافعي للبيهقي (2/ 244).

بهذا يكون قـد تمَّ المـراد فالحمـد لله أولا وآخـرًا، وسـبحانك اللـهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس المراجع

1-إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة بيروت ، بدون.

2-الأسنى في شرح الأسماء الحسنى للقرطبي، تحقيق محمد حسن جبل، دار الصحابة طنطا، ط1-1416.

3-اشتقاق أسماء الله للزجاجي، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط2 - 1406.

4-الأمد الأقصى لابن العربي، تحقيق التوراتي، دار الأمان الرباط، ط2-1436.

5-التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ، ط- 1984 هـ.

6-تفسير ابن عطية، تحقيق عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1 - 1422 هـ

7-تفسير ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2- 1420هـ.

8-تفسير الطبري ، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، ط1، 1422 هـ.

9-تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2-1384هـ.

10-جامع العلوم والحكم لابن رجب ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7-.1422

11-درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط2-1411 هـ

12-ربيع الأبرار للزمخشري، دار الأعلمي للمطبوعات بيروت، ط1-1412.

13-الرياض الناضرة للسعدي ، دار المنهاج ، القاهرة ، ط1-.1416

14-الزهد والرقائق لابن المبارك، تحقيق الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

15-الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي، دار الفكر ط1، 1407هـ.

16-السلسلة الصحيحة للألباني، مكتبة المعارف الرياض، ط1-1415.

17-سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

18-سنن أبي داود، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

19-سنن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط2- 1406 .

20-سنن الترمذي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي،ط2- 1395 هـ.

21-شعب الإيمان للبيهقي ، مكتبة الرشد بالرياض ، ط1-1423 ه.
22-الشكر لابن أبي الدنيا، المكتب الإسلامي الكويت، ط3-1400 ه.
23-صحيح البخاري، دار طوق النجاة، ط1-1422هـ.
24-صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
25-الصواعق المرسلة لابن القيم، دار العاصمة، الرياض، ط1-1408هـ.
26-طريق الهجرتين لابن القيم ، دار السلفية، القاهرة ، ط2، 1394هـ.
27-عدة الصابرين لابن القيم ، دار ابن كثير، دمشق، ط3- 1409هـ.
28-فتح الباري لابن حجر، تحقيق الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379.
29-الفروق لأبي هلال العسكري، دار العلم والثقافة، القاهرة، بدون.
30-الفوائد لابن القيم ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2- 1393 هـ.
31-قوت القلوب لأبي طالب المكي، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2-1426 هـ.
32-القول السديد للسعدي، دار الثبات الرياض، ط1-.1425

33-لسان العرب لابن منظور ، دار صادر – بيروت،ط3- 1414 هـ.
34-مدارج السالكين لابن القيم ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3- 1416 هـ.
35-مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، ط1- 1421
36-مفتاح دار السعادة لابن القيم ، دار الكتب العلمية، بيروت ، بدون.
37-مقاييس اللغة لابن فارس، دار الفكر، ط 1399هـ.
38-مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1-1390 هـ.
39-المنهاج في شعب الإيمان للحليمي، تحقيق: حلمي فودة، دار الفكر، ط1- 1399 هـ.
40-الموطأ لمالك، دار إحياء التراث العربي، ط-1406 هـ.

فهرس الموضوعات

صدر حديثا للمؤلف:





